توجيهات تربوية تعليمية لدارس البلاغة القرآنية

أودعها الإمام عبد القاهر الجرجاني مقدمة (دلائل الإعجاز)

د. فوزي إبراهيم صالح القرفة

الأستاذ المشارك – ب قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة إجدابيا

ورئيس قسم اللغة العربية بأكاديمية الدراسات العليا – إجدابيا

ملخص

هذه الدراسة يمكن أن تصنف ضمن الدراسات الأدبية التي تعنى بالدراسات البلاغية، حيث تهتم بجانب مهم، يدرس أصول البلاغة، متمثلة في توجيات تربوية وتعليمية لدارس البلاغة القرآنية ..أودعها الإمام عبد القاهر الجرجاني مقدمة كتابه (دلائل الإعجاز).

Summary

This study can be classified as literary studies concerned with rhetorical studies … where it is interested in an important side .. studying the rhetorical assets..

Represented by educational and educational directives of the Qur'an of Quranic rhetoric .. deposited by Imam Abd al -Qaher al -Jarjani, the introduction to his book (Evidence of Miracles).

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحاجة إلى دراسة بلاغة القرآن ومعرفة مكامن الإعجاز فيه أصبحت مهمة في عصرنا الحاضر، بل وفي كل عصر؛ لتظل حجة الله قائمة صامدة أمام جموح الأفكار المادية التي اجتاحت أرجاء المعمورة.

ولم يألُ علماؤنا جهداً في إضاءة الطريق أمام طلاب العربية والدراسات الإسلامية في توضيح سبل معرفة وفهم البلاغة القرآنية وأسرارها الإعجازية.

ويُعد الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) من رواد هذا النوع من الدراسات، لا سيما في كتابه الفريد (دلائل الإعجاز) الذي أقامه في مجمله على توضيح وجه الإعجاز البلاغي في كتاب الله المجيد.

واعتنى العلماء من بعده وطلبة العلم بدراسة هذا الكتاب شرحاً وتدريساً؛ لكنهم أغفلوا مقدمة الكتاب، أو نقول للإنصاف: إنهم لم يعتنوا بها العناية الكافية، ولم يعطوها حقها من البيان لما تضمنته من ذخائر ونفائس.

وقد أودع الإمام عبد القاهر مقدمة هذا الكتاب توجيهات تربوية أولاً، ثم تعليمية ثانياً، لمن أراد أن يتصدر لدراسة بلاغة القرآن وفهم مواطن الإعجاز البلاغي فيه.

وهذه الدراسة الموجزة تعنى بدراسة تلك التوجيهات التربوية والتعليمة، فاقتضى البحث إقامته على مقدمة، ومبحثين: جُعل الأول لبيان أهمية مقدمات الكتب وعناية العلماء بها، للحد الذي جعلهم يفردونها بالشرح والتصنيف. والمبحث الثاني: لدراسة توجيهات الإمام عبد القاهر التربوية والتعليمية لمن أراد دراسة البلاغة القرآنية.

ومن الله نستمد الحول والطول، ولاحول ولا قوة لنا إلا به

المبحث الأول

التعريف بمقدمات الكتب وأهميتها

تعريف المقدمة:

بداية إذا بحثنا عن المعنى اللغوي لمصطلح المقدمة نجد أن مادة قَدِم وقَدَم تفيد معنى السبق والأولية، والمقدمة اسم فاعل وهي صفة، نقلت للاسمية، تطلق في الأصل على مقدمة الجيش، ثم استعيرت للدلالة على اسم أول كل شيء.

قال بهاء الدين السبكي: "فكأن الكتاب جيش ومقدمته تلك الطائفة من الكلمات التي بها يتجاسر على المقصود، بها يتقدم إلى القارئ، وكأن هذا القارئ يشاهد معركة يصبح طرفاً فيها، وتصبح تلك المقدمة في الآن ذاته وسيلة عبور إلى الكتاب"[1].

والمقدمة في الاصطلاح هي: "طائفة من كلام قُدمت إلى المقصود لارتباط له بها، وانتفاع بها فيه"[2].

من خلال هذا التعريف يتضح أن المقدمة جزء من الكتاب، وطائفة من كلام المؤلف، ولها ارتباط بمقصوده وبموضوع الكتاب والغاية منه، وتأتي وظيفتها من حيث إنها تقدم ما ينتفع به في فهم لكتاب، وما يُستعان بع على تبصرة القارئ وتوجيهه[3].

أهمية مقدمات الكتب:

ليست المقدمة مجرد توطئة بين يدي الكتاب أو هي مجرد عمل منهجي يلتزم به المؤلف، وتأتي أهمية المقدمة من حيث إنها تعطيك تصوراً وافياً لمضمون الكتاب، بالإضافة إلى ما تتضمنه من (فوائد مكنونة وذخائرمخبوءة) تبعث النفوس وتستثير الهمم للقراءة والتحصيل.

ويمكننا إجمال أهمية مقدمات الكتب في النقاط الآتية:

1. في مقدمات الكتب بيان لأهمية المسألة أو الإشكالية التي يقوم عليها الكتاب وأسباب ودوافع تأليفه.
2. كذلك تتضمن المقدمة رموز أسرار الكتاب واختصاراته.
3. يوجد في المقدمة عصارة فكر المؤلف وخلاصة ما توصل إليه.
4. في المقدمة ملخص لما احتواه الكتاب؛ فإما أن تقتني الكتاب وتقبل عليه أو تنصرف عنه.

---

[1] عروس الأفراح (1/ 54) تحـ: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العرية، بيروت، ط1، 2003م.
[2] مقدمة الكتاب في اللغة والاصطلاح ، عباس أرحيلة (319/11) ضمن مجلة جذور، العدد 2002م
[3] نفسه (319/11).

5. في المقدمات تحفيز للذهن وإثارة للعقل بما يقدمه المؤلف من فرضيات وأفكار جديدة.

6. مقدمات الكتب كفيلة لجذب انتباه القارئ عندما يحسن المؤلف سبكها وصياغتها بطريقة تجذب انتباه القارئ وتثير انتباهه.

7. تتضمن المقدمة ملخصاً لموضوع الكتاب دون التفصيل في المحتوى بالقدر الذي يعطيك انطباع عنه دون الخوض في التفاصيل.

8. في الغالب يذكر المؤلف في المقدمة مصادره التي استعان بها، كما يذكر مؤلفات من سبقه إلى هذا الفن، وليس أهم من قراءة الكتاب إلا معرفة مصادر المؤلف.

9. وعادة المؤلفين أنهم يكتبون المقدمة بعد الفراغ من التأليف حتى يكون ملماً بما كتب فلا يفوته في المقدمة شيء[1].

وقد اشتهر العديد من المؤلفين بموهبة كتابة المقدمات وحسن صياغتها منهم:

مقدمة أبي نعيم الأصبهاني (ت430هـ) في كتابه (دلائل النبوة) اشتهرت حسن صياغتها، وتضمنها فوائد علمية قيمة.

ومحمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ) عُرف ببلاغته وحسن بيانه، واشتهر بتفسيره (الكشاف)، وقدم له بمقدمة حظيت بإعجاب أهل العلم؛ للحد الذي جعلهم يفردونها بالشرح كصنيع الشيخ الطاهر بن عاشور التونسي.

وممن عُرف بموهبة صياغة المقدمات في مؤلفاته الإمام ابن قيم الجوزية (ت751هـ) نجد مقدمات كتبه ثرية بالفوائد، غنية بالذخائر، يجد القارئ متعة في قراءتها والاستفادة منها.

[1] ينظر: الفوائد الندية من مقدمات الكتب الأصولية، رائد العصيمي ص170، مجلة الدراسات الإسلامية والبحوث الأكاديمية، العدد (77).

واشتهر من مقدمات الكتب مقدمة الإمام التهاوني (ت1394هـ) لكتابه (إعلاء السنن) لما حوته من فوائد علمية في علم الحديث.

المبحث الثاني

التوجيهات التربوية والتعليمية

أولاً: التوجيهات التربوية

إذا ما أردنا تقسيم مقدمة الإمام عبد القاهر إلى فقرات، بحسب ما تضمنت كل فقرة من توجيهات، ووضع عنوان لكل فقرة فإنها تكون على النحو الآتي:

1. التضرع إلى الله والتجرد من الحول والقوة إلا به:

نجد الإمام عبد القاهر في مستهل هذه المقدمة يحمد الله على نِعَمِهِ عامة، ومن بينها – ولا شك – نعمة طلب العلم، لا سيما العلم الذي يتعلق بفهم كتاب الله وتفسيره وإعجازه.

ثم نجده يتضرع إلى الله أن يَكْفِيَهُ النوائب أي المصائب، والحوادث وبتعبير الإمام: "ونَستكفيهِ نوائبَ الزَّمان، ونوازلَ الحَدَثان"[1].

فعلى العالم فضلاً عن طالب العلم أن يحمد الله أن جعله من أهل العلم واصطفاه؛ بأن حببه في العلم وأهله، فإنها نعمة تعرف قدرها عندما تتأمل فيمن حولك، وتنظر بما شُغل به غيرك، وإذا أردت أن تعرف مكانتك عند الله فانظر بما شغلك، وقديما قالوا: مقامك حيث أقامك.

ثم يرغب إلى الله أن يجعل التوفيق حليفه فيما كتب أوصنف، وأن يعصمه من الوقوع في الزلل، فإن الإنسان جُبل على النقص والسهو في كل عمل يقوم به.

---

[1] دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992م.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على طالب العلم أن يبرأ من حوله وقوته، ويلتجأ إلى الله، ويتضرع إليه أن يمده بعونه وقوته في طلب العلم، فإنه علم شريف يتعلق بكتاب الله فلا قدرة للعبد على فهمه ودراسته والتوفيق في ذلك إلا بمعونة الله ومدده.

2. أهمية اليقين والإيمان لدارس بلاغة القرآن:

في فقرة تالية يُلمح الإمام عبد القاهر إلى أهمية اليقين أي الإيمان في اعتقاد طالب العلم، فيسأل الله "يقيناً يملأ الصدر، ويعمر القلب، ويستولي على النفس"[2].

وهذا لا يكون إلا بتوفيق من الله واصطفاء وهداية، فإن الإيمان وسلامة الاعتقاد تقي العالم والمتعلم من الضلالات والبدع والتلبس بالشبهات واتباع الهوى. فإن النفس تنزغ صاحبها وتسول له الاغترار بعلمه، وبعبارة الإمام عبد القاهر: "حتى يكُفَّها إذا نَزغت ويردَّها إذا تطلَّعتْ"[1].

جاء في التهذيب: "النزغُ. أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد ذات بينهم...قال الله تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ} [الأعراف: 200] ونَزْغ الشيطان: وساوسه ونخسه في القلب بما يسول للإنسان من المعاصي"[2].

3. فضيلة التوكل على الله في طلب العلم:

كذلك أشار الإمام عبد القاهر في مقدمته إلى أهمية التوكل على الله لطالب العلم لا سيما العلم الذي يتعلق بكتاب الله، وإقامة حجة الله على الخلق وبقائها إلى أن يشاء الله. فإن الموفق من سلك هذا السبيل، وينبغي على طالب أن يجعل التضرع، والتوكل على الله ديدنه، قال الإمام: "وثقةً بأنَّه عزَّ وجلَّ الوَزَرُ والكالىءُ والرّاعي والحافظُ وأنَّ الخيرَ والشرَّ بيدهِ. وأنَّ النعمَ كُلَّها من عنِده، وأنْ لا سلطانَ لأحدٍ معَ سُلطانهِ نوجَّهُ رغباتِنا إليه، ونُخلِص نِياتِنا في التوكلُّ عَليه"[3].

---

[2] نفسه ص3
[1] الدلائل ص3.
[2] تهذيب اللغة للأزهري (نزغ) تحـ: عبد السلام هارو، ومحمد النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة.
[3] الدلائل ص3.

والوزر في كلام العرب: الجبل الذي يُلتجأ إليه، وهذا أصله، وكل ما التجأتَ إليه وتحصنت به فهو وَزرٌ...والوزير في اللغة اشتقاقه من الوزر، ووزير الخليفة معناه الذي يعتمد على رأيه في أموره، ويلتجئ إليه. ولأنه يَزِر أي يحمل عن السلطان أعباء تدبير المملكة، قال تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي} [طه: 29][4].

4. تحري الحق والصواب والتجرد من اتباع الأهواء:

وهذا من أهم ما تحلى به طالب العلم من الصفات الحميدة؛ وهي أن يكون بغيته الحق والصواب ولو كان مخالفاً لهواه، وبعبارى الإمام عبد القاهر: "وأن يَجْعلنا مِمَّنْ هَمُّه الصَّدقُ، وبُغيتُه الحقُّ، وغَرضُه الصَّوابُ وما تُصحَّحهُ العُقولُ وتَقبُلُه الأَلبابُ"[5].

فإن الصدق عنوان الوقار، وشرف النفس ونقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل، ورسول المودة مع الخلق وسعادة الجماعة، وصيانة الديانة..قال الأوزاعي رحمه الله تعالى: تعلم الصدق قبل أن تتعلم العلم. وقال وكيع رحمه الله تعالى: هذه الصنعة لا يرتفع فيها إلا صادق[1].

فإن اتباع الهوى من أسوأ ما يبتلى به طالب هذا العلم الشريف، وقد جاء اتباع الهوى في القرآن مقروناً بالضلال قال تعالى : {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: 50]. وقال في موضع آخر: {وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} [الأنعام: 119].

بل ورد أشد من ذلك في النهي عن اتباع الهوى، قال تعالى: { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان: 43].

---

(4) تهذيب اللغة للأزهري (وزر).
(5) الدلائل ص3
(1) ينظر: حلية طالب العلم- بكر أبوزيد ص61- مؤسسة الرسالة- بيرقت- ط1 – 2002م.

لكل هذا المعاني تضرع الإمام عبد القاهر أن يجعله ممن يطلب الحق والصدق والصواب بتجرد، وصدق نية، وإخلاص.

5. خطر التعالم وادعاء العلم بما لا تعلم:

إن من أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها طالب هذا العلم الشريف أن لا يدعي معرفة ما لا يعلم، بل يجعل عبارة (لا أدري) و(الله أعلم) عادة له، روي عن ابن عباس قوله: "من فاته لا أدري أصيبت مقاتله"؛ لأن ادعاء العلم بما لا يعلم، يوقعه في حرج عظيم، ويجعل من نفسه محل سخرية وبغض من الناس، فضلاً عن كونه أمراً محرماً قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف: 33].

وهذا مفاد قول الإمام عبد القاهر: "ونعوذ به مَن أن ندّعيَ العلمَ بشيءٍ لا نعلَمُه، وأنْ نُسَدَّيَ[2] قولاً لا نُلحمُه[3]"[4].

كذلك فيما سبق إشارة إلى أنه ينبغي على طالب علم بلاغة القرآن يتقن أصول هذا العلم وقواعده، ويتقن الفنون التي تعينه \على ذلك؛ أعني علوم العربية والشريعة.

6. عدم الاغترار والانخداع بالمدح والثناء:

كما استعاذ الإمام عبد القاهر من أن يكون "ممَّن يغرُّهُ الكاذبُ منَ الثَّناء وينخدِعُ للمتجوِّز في الإطراء"[1] فإن من أهم مما يتحلى به طالب هذا العلم التواضع وعدم الاغترار، فإن التواضع لهذا العلم هو تواضع لله، وينبغي عدم الانخداع بثناء الناس، فإنهم يمدحون إذا رضوا ويذمون إذا سخطوا، ومن اغتر أذهب الله بركة علمه، وحُرم الأجر، ومن تواضع رفعه الله أعلى قدره، ونفع به وبعلمه الناس.

---

[2] نسدي من قولهم: سدى الثوب نسجه، وتسدى الشيء علاه وركبه، وتسدى الأمر غلبه وقهره

[3] نلحمه من قولهم: ألحمْ ما أسديت: أتمم ما بدأت.

[4] الدلائل ص3.

[1] الدلائل ص3.

7. البعد عن المراء والجدل العقيم:

كذلك ينبغي على دارس البلاغة القرآنية أن ينأى بنفسه عن الجدال والمراء الذي لا خير فيه، وأصل الجدال: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة. واستعاذ الإمام عبد القاهرمن أن "يكونَ سبيلُنا سبيلَ مَن يُعجبُه أنْ يُجادلَ بالباطلِ، ويُموَّهَ على السّامع، ولا يُبالي إذا راجَ عنه القولُ أن يكونَ قد خلَّطَ فيه ولم يُسدَّدْ في معانيه"[2].

فإن الجدال لا خير فيه، لا سيما إن كان بالباطل، أو انتصاراً لهوى النفس، وليس إحقاقاً للحق، أو كان من دون علم وفهم، وقصد منه الفتنة والتمويه ونصرة الباطل، وليس لإظهار الحق وبيانه؛ عندئذ يكون مذموماً ومحرماً.

8. فضل العلم ومكانته ومحبة أهله:

فلنترك الإمام عبد القاهر يحدثنا عن هذه الفضيلة العظيمة والمنقبة الشريفة، فقد أبان وأجاد؛ ببلاغة منقطعة النظير، قال رحمه الله: "وبعدُ .. فإنّا إذا تصفَّحْنا الفضائلَ لنعرفَ منازِلَها في الشرَّف، ونتبيَّنَ مواقِعَها منَ العِظَم، ونعلمَ أيُّ أحق منها بالتّقديم، وأسبقُ في استيجابِ التعَّظيم، وجَدْنا العِلمَ أَوْلاها بذلك وأَوَّلها هنالك، إذ لا شرَف إلا وهو السّبيلُ إليه، ولا خيرَ إلا وهو الدَّليلُ عليه، ولا مَنْقَبَة إلا وهو ذُروتُها وسَنامُها، ولا مَفْخرةَ إلا وبهِ صِحّتُها وتَمامُها، ولا حسنَةَ إلا وهو مِفتاحُها، ولا مَحْمَدةَ إلا ومنه يَتَّقدُ مصباحُها.

وهو الوَفيُّ إذا خانَ كلُّ صاحبٍ، والثِّقَةُ إذا لم يُوثقْ بناصحٍ. لولاهُ لمَا بانَ الإنسانُ من سائِرِ الحيوانِ إلاّ بتخطيط صُورتِه وهيئةِ جسمِهِ وبِنيتِه، لا ولا وَجدَ إلى اكتسابِ الفضلِ طريقاً ولا وُجِدَ بشيءٍ منَ المحاسنِ خليقاً.

[2] نفسه.

ذاكَ لأنَّا وإنْ كُنا لا نصلُ إلى اكتسابِ فضيلةٍ إلا بالفعلِ، وكانَ لا يكونُ فعلٌ إلا بالقُدرة، فإنّا لم نَرَ فعلاً زانَ فاعلَهُ وأوجبَ الفضلَ له حتى يكونَ عنِ العلم صَدَرُهُ، وحتّى يتبيَّن مَيسَمُه[1] عليه وأثرُه. ولم نَرَ قدرةً قطُّ أكْسَبَتْ صاحَبَها مَجداً، وأفادتْه حَمداً دونَ أن يكونَ العلمُ رائدَها فيما تطلُبُ، وقائدَها حيثُ تَؤمُّ وتذهبُ، ويكونَ المصرَّفَ لِعنانِها والمقلِّبَ لها في مَيْدانِها، فهي إذن مفتقرةٌ في أن تكونَ فضيلةٌ إليه، وعيالٌ في استحقاقِ هذا الاسم عليه، وإذا هيَ خلتْ منَ العِلم أو أبتْ أن تَمْتثلَ أمرَهُ، وتَقْتفيَ أثره ورسمَهُ آلتْ ولا شيءَ أحشدُ للذَّمِّ على صاحبِها منها، ولا شَيْنَ أشَيْنُ مِن إعمالِه لها. فهذا في فضلِ العلم لا تجدُ عاقلاً يُخالفُك فيه، ولا تَرى أحداً يدفَعُه أو يَنْفيهِ"[1]. ما على هذا مزيد.

9. عدم انتقاص بقية العلوم والزراية بأهلها:

أشار الإمام عبد القاهر إلى مسألة مهمة ينبغي أن يتنبه إليها العالم والمتعلم، وهي عدم انتقاص بقية العلوم التي لا يتقنها، فقد جُبلت الطباع على مدح ما يتقنه الإنسان من علم أو عمل، وانتقاص كل ما لا يعلم أو يتقن، وهذا ما فهمته من قوله: "تَرى كُلاًّ منهم – لحُبِّه نفسَهُ وإيثارِهِ أن يدفعَ النّقْصَ عنها – يقدَّمُ ما يُحسِنُ من أنواعِ العلمِ على ما لا يُحسِنُ. ويحاولُ الزَّراية على الذي لم يحظَ به والطَّعنَ على أهلهِ وَالغَضَّ منهم"[3].

وخليق بطالب العلم أن يبتعد عن هذه الصفة المذمومة ويحمد الله أن حبب إليه العلم، وجعله من أهله.

---

(1) قال الأزهري: والميسم: المكواة أو الشيء الذي يُوسم به الدَّواب، والجميع المواسِم، وقال الله تعالى: {سنسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ}. فإن فلانا لموسوم بالخير وبالشرَّ: أي عليه علامة الخير أو الشر، وإن فلانة لذات مِيسم، وميسمها: أثر الجمال والعقل. وإنها لوسيمة قسيمة. وقال أبو عبيد: الوَسَامة والمِيسَم: الحُسن. وقال ابن كلثوم:

ظعائن من بني جشم بن بكر خلطْنَ بمِيَسم حسباً ودِيناً.

ينظر: تهذيب اللغة (وسم).

(1) الدلائل ص4.

(3) نفسه ص5.

ثانياً: التوجيهات التعليمية

كذلك أودع الإمام عبد القاهر الجرجاني مقدمة كتابه (دلائل الإعجاز) توجيهات تعليمية، لدارس البلاغة القرآنية، ولمن يريد أن يقف على الوجه البلاغي الإعجازي في القرآن، وأن يعرف سر عجز الخلق عن الإتيان بمثله، ويحرص على بقاء حجة نبينا عليه – الصلاة والسلام – باقية، وقائمة إلى قيام الساعة. من هذه التوجيهات:

1. بيان فضل علوم البلاغة ومكانتها بين بقية علوم اللسان

بعد أن أوضح الإمام عبد القاهر فضل العلم وأهله – على وجه العموم – في بيان وبلاغة منقطعة النظير، ذكر فضل علوم البيان والبلاغة على وجه الخصوص، قال رحمه الله: "ثم إنّك لا تَرى عِلماً هو أرسخُ أصلاً وأَبسقُ فَرعاً وأَحلى جَنىً وأعذبُ وِرداً وأكرمُ نَتاجاً وأنورُ سراجا مِن علمِ البيان، الذي لولاه لم تَرَ لساناً يحُوكُ الوَشيَ ويصوغُ الحَلْيَ ويلفُظُ الدُّرَّ وينفَثُ السِّحرَ ويقري الشَّهْدَ ويُريكَ بدائعَ منَ الزَّهر ويُجنيكَ الحلوَ اليانعَ من الثَّمر.

والذي لولا تحفِّيهِ بالعُلومِ وعنايَتُه بها وتصويرهُ إياها لبقيتْ كامنةً مستورةً ولَما اسْتَبنتْ لها يدَ الدَّهرِ صُورةً، ولاستمرَّ السَّرار بأَهِلَّتِها واسْتَولى الخَفاءُ على جُملتِها. إلى فوائدَ لا يُدركُها الإحصاءُ ومحاسنَ لا يحصُرُها الاستقصاءُ"[1].

ثم عقب ببيان ما نال هذا العلم من إهمال وانتقاص، إذ لم يحظ بالاهتمام الذي يستحقه، والمكانة التي ينبغي أن يتبوأها، قال: "إلا أنّك لن تَرى على ذلك نوعاً من العلم قد لقيَ من الضَّيْم ما لَقِيَهُ، ومُنِيَ منَ الحَيْفِ بِما مُنِيَ به ودَخل على الناسِ منَ الغلطِ في مَعْناهُ ما دخلَ عليهم فيهِ . فقد سَبقتْ إلى نُفوسهم اعتقاداتٌ فاسِدةٌ وظنونٌ رديَّةٌ، وركبَهُم فيه جهلٌ عظيمٌ وخطأٌ فاحشٌ. تَرى كثيراً منهم لا يَرى له معنىً أكثرَ ممَّا يُرى للإشارةِ بالرأس والعين وما يجده للخَطِّ والعَقْد"[2].

---

[1] الدلائل ص5.
[2] نفسه ص5.

2. العلوم اللغوية لا تكفي لدراسة البلاغة القرآنية:

أبان الإمام عبد القاهر حقيقة أن معرفة علوم العربية على وجه العموم لا يكفي لفقه أسرار بلاغة القرآن، ونذّد بمن يذهب إلى أن كل فصيح في العربية يمكنه أن يعرف وجه الإعجاز البلاغي في القرآن. فليس "كلُّ مَنْ عَرف أوضاعَ لغة منَ اللّغات عربيةً كانت أو فارسيّةً، وعرفَ المغْزى من كلَّ لفظةٍ، ثم ساعدَهُ اللّسانُ على النُّطق بها، وعلى تَأديةِ أجراسِها وحُروفِها، فهو بَيَّنٌ في تلك اللّغةِ، كاملُ الأداةِ، بالغٌ منَ البيانِ المبلغَ الذي لا مزيدَ عليه مُنتهٍ، إلى الغايةِ التي لا مذهَبَ بعدَها"[1].

3. تعلم البلاغة القرآنية يحتاج إلى تدبّر وروية:

ورد في كلام الإمام عبد القاهر كلمتان وهو بصدد توضيح سبيل تعلم وفهم أسرار إعجاز القرآن – في اعتقادي هما مدار تعلم هذا العلم الشريف، قال ما نصه: "إن ها هنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر"[2].

(الروية والفكر) أي أن تعلم البلاغة القرآنية؛ يحتاج إلى التمهل والتريث، والمراجعة والأناة، والمجاهدة والمكابدة، وقبل كل ذلك الصدق والإخلاص، صدق النية في معرفة حجة الله على خلقه، والإخلاص لهذا العلم.

وكلاهما: الصدق والإخلاص – مدعاة لرفع الحُجُب بين الطالب وبين تلك الأسرار واللطائف، حتى يصل إلى مرحلة التمييز بين طبقات الكلام، بالقدر الذي يدرك فيه تفوق كلام الله على ما عداه، إلى حد الإعجاز والخروج عن طوق البشر.

وهذا كلام الإمام جملة قال: "إنَّ ها هُنا دقائقَ وأسراراً[3] طريقُ العلمِ بها الرويَّةُ والفِكرُ، ولطائفَ مُسْتقاها العَقلُ، وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها ودُلُّوا عليها وكُشفَ لهم عنها ورُفعتِ الحجبُ بينَهُم وبينَها، وأنّها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ ووجَبَ أن يفضُل بعضُه بعضاً وأن يَبْعُدَ

(1) الدلائل ص6.
(2) نفسه ص7.
(3) يقصد دقائق بلاغة القرآن وأسرارها.

الشأْوُ في ذلك وتمتَدُّ الغايةُ وَيعلوَ المُرتقَى ويَعِزَّ المَطلبُ حتّى ينتهيَ الأمرُ إلى الإعجازِ وإلى أن يخرُجَ من طَوْقِ البَشر"[4].

ج

4. أهمية علم الشعر لدراسة البلاغة القرآنية

أبان الإمام عبد القاهر عن أهمية علمين جليلين لتعلم بلاغة القرآن الإعجازية، وفهم تفوق كلام الحق على غيره من الكلام وهما علما الشعر والنحو.

ولنبدأ بعلم الشعر؛ حيث استهل الإمام عبد القاهر حديثه عن أهمية الشعر بتوجيه النقد لمن لم يدركوا أهمية معرفة علم الشعر في إدراك حقيقة الإعجاز قال: "ولمّا لم تَعرفْ هذه الطائفةُ هذهِ الدقائقَ وهذهِ الخواصَّ واللَّطائفَ لم تَتَعرَّضْ لها ولم تَطْلُبْها. ثمَّ عنَّ لها بسوء الاتفاق رأيٌ صارَ حجازاً بينَها وبينَ العلم بها وسُداً دونَ أن تصلَ إليها، وَهوَ أنْ ساءَ اعتقادُها في الشَّعر الذي هو معدِنُها وعليه المُعوَّلُ فيها"[1].

وذهب الإمام عبد القاهر إلى أنه: لا يمكن لأحد أن يدرك سر الإعجاز وحقيقة إقامة الحجة بالقرآن، إلا من عرف الشعر ودقائقه، ولا نشك أنه يقصد تحديداً شعر عصر نزول القرآن وهو ما نسميه شعر العصر الجاهلي. يقول الإمام: "وذاك أنا إذا كُنَّا نعلمُ أنَّ الجهةَ التي منها قامَتِ الحُجّةُ بالقُرآنِ وظهرتْ وبانَتْ وبهرَتْ هيَ أنْ كانَ على حدٍّ منَ الفَصاحةِ تَقْصُرُ عنه قُوى البشرِ ومُنتهياً إلى غايةٍ لا يُطمَحُ إليها بالفِكر، وكان مُحالاً أن يعرفَ كونَه كذلك إلا مَن عرَفَ الشعرَ الذي هو ديوانُ العَرب وعنوانُ الأدب"[2].

بل ذهب أبعد من ذلك... عندما عاب على من يصدون الناس عن تعلم الشعر وفهمه هو في الحقيقة صاد "عن أن تُعرفَ حُجَّةُ الله تعالى.. وكان مثلُه مثلَ مَن يتصدَّى للنّاسِ فيمنعُهم عَن أنْ يحفظوا كتابَ

(4) الدلائل ص7.
(1) الدلائل ص7.
(2) نفسه ص8.

الله تعالى ويقوموا به ويتلُوه ويقرؤوه ويصنعُ في الجملةِ صَنيعاً يؤدّي إلى أن يقلَّ حُفَّاظُه والقائمونَ به والمُقرئون له"[3].

وقد استطرد الإمام عبد القاهر في بيان مكانة الشعر وأهميته والرد على منتقصيه، وأتى بكل حجة وبرهان بأسلوب حواري جدلي، ليس هذا المقام مقام بسط فيه.

5. دراسة الشعر الجاهلي وفهم دقائق معانيه هو السبيل لمعرفة إعجاز القرآن.

ولا نشك أن الشعر الذي قصده عبد القاهر وحث على تعلم دقائقه ومسالكه هو الشعر الي كان موجوداً عند نزول القرآن، وهو ما أُصطلح على تسميته بالشعر الجاهلي، فلقد بلغ الذروة من البلاغة والبيان التي ليس بعدها مطمع.

ولن يعرف تفوق بلاغة النظم القرآني إلا من عرف تفوق الشعر الجاهلي على شعر كل العصور التي تلته، وذلك بأن يقارن بين النظمين؛ عندئذ يدرك حقيقة تفوق القرآن على غيره من الكلام وتفوقه على جنس كلام البشر، وبعبارة الإمام: "يبعد الشأو في ذلك، وتمتد الغاية، ويعلو المرتقى، ويعزّ المطلب، حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز، وأن يخرج عن طوق البشر"[4].

قال الإمام عبد القاهر: " وذاك أنا إذا كُنَّا نعلمُ أنَّ الجهةَ التي منها قامَتِ الحُجّةُ بالقُرآنِ وظهرتْ وبانَتْ وبهرَتْ هيَ أنْ كانَ على حدٍّ منَ الفَصاحةِ تَقْصُرُ عنه قُوى البشرِ ومُنتهياً إلى غايةٍ لا يُطمَحُ إليها بالفِكر . وكان مُحالاً أن يعرفَ كونَه كذلك إلا مَن عرَف الشعرَ الذي هو ديوانُ العَرب وعنوانُ الأدب والذي لا يُشكُّ أنه كانَ ميدانَ القومِ إذا تَجاروْا في الفَصاحة والبيان وتنازَعوا فيهما قصَبَ الرَّهان"[1].

---

[3] نفسه ص9.
[4] نفسه ص7.
[1] دلائل الإعجاز ص8،9.

6. أهمية علم الإعراب لدراسة البلاغة القرآنية

نص الإمام عبد القاهر على أهمية معرفة علم الإعراب لفهم أسرار كتاب الله ودقائقه، ولطائف نظمه وخصائصه، فإن علم الإعراب هو الناسب الذي ينميها إلى أصولها[4]. بمعنى: أن علم النحو هو الذي يدل عليها.

وأن الزهد في هذا العلم والسعي لصد الناس عنه "أشبه بأن يكون صداً عن كتاب الله وعن معرفة معانيه...إذ كان قد عُلم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يُعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه"[5].

7. إعجاز القرآن بين الاعتقاد والتعلم

كما أشار الإمام عبد القاهر إلى مسألة مهمة ينبغي ألا تغيب عن ذهن دارس البلاغة القرآنية، وهي ألا يكتفي باعتقاد إعجاز القرآن – بالرغم من أن ذلك جزء من عقيدة المسلم– لكن الأهم من مجرد الاعتقاد أن يقف الدارس على مواضع هذا الإعجاز، ويتحسس مواضعه في كتاب الله، ليكون الاعتقاد مبرراً ومفهوماً، وحجته أَنورَ وأبهرَ، وأقوى وأقهر. على حد تعبير الإمام عبد القاهر.

وليتمكن كل من يؤم هذا العلم من تعلمه وتحصيله إذا ما توافرت فيه آلاته ودواعيه. ولندع الإمام عبد القاهر يشنف أسماعنا ببلاغة لسانه في هذه المسألة قال:"فإنْ قال منهُم قائلٌ : إنّك قد أغفلتَ فيما رتَّبتُ فإنَّ لنا طريقاً إلى إعجازِ القرآنِ غيرَ ما قُلتُ وهو عِلمُنا بعجزِ العرَب عن أن يأتوا بمثلِه وتركِهم أن يعارضُوه مع تكرارِ التّحدَّي عليهم وطولِ التقَّريع لهُم بالعجزِ عنه . ولأنَّ الأمرَ كذلكَ ما قامتْ به الحُجّةُ على العَجم قيامَها على العرب. واستوى النّاسُ قاطبةً فلم يخرج الجاهلُ بلسانِ العرب من أن يكونَ مَحْجوجاً بالقرآن.

---

(4) ينظر: المصدر نفسه ص8.
(5) نفسه ص28.

قيلَ له: خَبّرنا عمّا اتفقَ عليه المُسلمون منِ اختصاصِ نبيَّنا عليه السلام بأن كانتْ معجزتُه باقيةً على وجهِ الدَّهر أتعرفُ له معنىً غيرَ أن لا يزالُ البرهانُ منه لائحاً مُعْرضاً لكلَّ من أرادَ العلمَ به وطلبَ الوصولَ إليه والحُجّةَ فيه وبه ظاهرةً لمن أرادَها والعلمُ بها ممكناً لمَن التمَسه.

فإذا كنتَ لا تشكُّ في أنْ لا معنى لبقاءِ المُعجزةِ بالقرآن إلا أنَّ الوصفَ الذي له كان معجزاً قائمٌ فيه أبداً وأنّ الطريقَ إلى العلم به موجودٌ والوصولَ إليه ممكنٌ فانظرْ أيُّ رجلٍ تكونُ إذا أنتَ زَهَّدْتَ في أن تعرفَ حُجَّة الله تعالى وآثرتَ فيه الجهلَ على العِلمِ وعدمَ الاسْتبانةِ على وُجودِها. وكان التّقليدُ فيها أحبَّ إليك والتعويلُ على علمِ غيرِك آثَرُ لديك ونَحَّ الهوى عنك وراجعْ عقلك واصدُقْ نفسك يَبِنْ لك فُحشُ الغلطِ فيما رأيتَ وقُبحُ الخطأ في الذي توهَّمتَ. وهل رأيتَ رأياً أعجزَ واختياراً أقبحَ ممّن كرَه أن تُعرفَ حجّةُ الله تعالى منَ الجهةِ التي إذا عُرفْت منها كانت أَنورَ وأبهرَ وأقوى وأقهر وآثَرَ أنْ لا يَقْوى سلطانُها على الشَّرْك كلَّ القوة ولا تَعْلو على الكفرِ كلَّ العلوَّ. واللهُ المستعانُ"[1].

الخاتمة

نسأل الله حسنها...يمكن إجمال ما توصل إليه الباحث من خلال العمل في البحث في النقاط الآتية:

. مقدمات الكتب مهمة للقارئ ينبغي الاطلاع عليها، والعناية بها لأنها مفتاح الكتاب.

. وقد اعتنى أسلافنا بمقدمات كتبهم، وأودعوها نفائس وذخائر، ينبغي الاستفادة منها.

. وأولى الإمام عبد القاهر الجرجاني مقدمات كتبه عناية خاصة، لا سيما كتابه الفريد (دلائل الإعجاز) الذي قدم له بمقدمة تكتب بماء الذهب.

. وكان من أهم ما اعتنى به الإمام عبد القاهر بناء العالم وطالب العلم، قبل العناية بمادة العلم، بل اهتم ببناء الإنسان الإيجابي الواعي والمخلص لدينه وأمته.

[1] الدلائل ص10.

. وجدته في مقدمة كتابه (دلائل الإعجاز) يوطئ للمهتم بالدراسات البلاغية، المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم، بإعطائه نصائح وتوجيهات ينتفع بها في رحلة دراسته وبحثه في هذا العلم الشريف.

. اقتضى البحث في مقدمة الدلائل تقسيمها إلى مبحثين: الأول يدرس التوجيهات التربوية والأخلاقية التي ينبغي أن يتحلى بها طالب العلم عموماً، ودارس البلاغة القرآنية على وجه الخصوص.

. ثم التوجيهات التعليمية، التي تتضمن أُسُساً وقواعد ينبغي تعلمها وفهما لتكون الأساس الذي ينطلق منه دارس البلاغة القرآنية.

والحمد لله على فضله أولاً وآخراً

قائمة المصادر والمراجع

1. تهذيب اللغة، لأبي منصورالأزهري، تحقيق: عبد السلام هارو، ومحمد النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة.
2. حلية طالب العلم، بكر أبوزيد، مؤسسة الرسالة– بيرةت– ط1 – 2002م.
3. دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992م.
4. عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العرية، بيروت، ط1، 2003م.
5. الفوائد الندية من مقدمات الكتب الأصولية، رائد العصيمي، مجلة الدراسات الإسلامية والبحوث الأكاديمية، العدد (77).
6. مقدمة الكتاب في اللغة والاصطلاح ، عباس أرحيلة ، بحث ضمن مجلة جذور، العدد 2002م